شمس، إذ أنها أساس التمدن وزعيم الآداب وبالاختصار هي الواسطة الوحيدة لبلوغ المرء إلى قمم الفلاح والنجاح، فبانحطاطها ينحط العمران وبارتفاعها ترتفع الأكوان ولنا شاهد بكل الأمكنة والأزمان إذ لا يخفى ما يتوقف عليها من أمور بني الإنسان التي لا يدركها من ذلك قلم ولا لسان. فيا لسعد طالعنا ووفر حظنا نحن العثمانيات كوننا في هذا العصر الحميدي الأسعد عصر السلام ألا يؤخرنا عن التقدم إلاَّ خمولنا وكسلنا حيث لا ابنة أو امرأة تقصد تقدمها أو تقدم غيرها إلاَّ ونرى مئات من الأيدي من فوقها تلك اليد البيضاء الحميدية كانت خير مساعدة ونصيرة. فيلزمنا والحالة هذه أن لا نسمح بصرف أوقاتنا بما لا طائل تحته من الأحاديث والاهتمامات الخارجية الزائلة الجانحة بنا لهاوية الجهل فالدثار «لا سمح الله بذلك»، ونحن في هكذا عصرٍ فلنتخلق بالأخلاق الحميدة ونزدان بالعلوم والمعارف ونعكف على الشغل والعمل، ونسعى وراء كل فضيلة من شأنها ترقي الوطن فتصبح بلادنا في أمدٍ قصير جنة تجري من تحتها الأنهار، ولنعلم دائمًا أن عينًا ناظرة إلى كل أعمالنا وسنطالب إن لم نقم بواجباتنا حق القيام، وبذلك يجدر بنا أن نكون في أعلى المراتب ونصل بأمان حتى سواحل الأبدية والسلام.

التنديد بالغير وأضراره

«خطاب القتهُ حضرة الكاتبة الفاضلة الآنسة استير ازهري»

«في جمعية باكورة سوريا في بيروت»

سيداتي الفاضلات

لا ريب أن مقام الخطيب في كل عصر ومصر النظر لما خل من الأحوال بعين الناقد البصير وتحريض القوم على إصلاحها ما استطاعوا إلى الإصلاح سبيلاً ممهداً

لهم سبله ليس بأقواله بل بأعماله، وإن فعل ذلك قام بما أهله المولى من القيام، فعرف الخطأ ولم يسدل عليه الغطاء.

هذا وأنى لا أنطال للسياق فى حلبة ميدان الخطابة كونى لست من فرسانها ولكن هى الحاجة تجعل الخامل نبيهًا والجاهل عالمًا والضعيف قويًا، كيف لا وقد رائت التنديد بالغير قد بلغ درجة هى منتهى ما يصل إليه الشر والشر كما لاخفاكن سريع السريان بحيث لم يعد بالوسع السكوت عنه.

ومعلومكن سيداتى أن اللئيم لا يتشدق بما تختلقه قريحته من الأكاذيب وإشاعة الأخبار التى لا أصل لها إلاَّ بما فطرت عليه أخلاقه السمجة الذميمة، فيرى الفضل بمرآة ما فيه من النقص، فيتطاول على من هم أرفع منه مقامًا وأسمى مركزًا وشأنًا وما ذلك إلاَّ غيرةً وحسدًا بما أمتهنهم وأتهمهم بما هم منه براء ويا قاتل الله الحسد الذميم الذى يحمل صاحبه أن يبتزل بالنفاق والإفك أفاضل القوم وكرامها والأغرب من ذلك أن مجالسوه الذين عرفوا نفاقه وتأكدوا غدره ودنائة أخلاقه يعيرونه عينًا راضية وأذنًا صاغية كأنهم يشاركونه بما يبنيه من حبات رمل التعريض والتقريع والاختلاق قلعًا منيعة وأبراجًا حصينة لا يقوى على هدمهما سوى الحق اللهمَّ إذا وجد من يأخذ بناصره أن الحق كان غلابًا.

فلكم أزال الكذب من نعمة وآثار من نقمة وهدم من قصور واستبدل حسن حسناء بالضعف والهزل والفتور، فمهلاً مهلاً أيها القادح لقد ملأت الديار ظلمًا وبلاءً وأفعمتها مصائبًا وشقاءً من حيث لا تعلم:

كالسيل بالليل لا يدرى به أحدٌ من أين جاءَ ولا من أين يأتيهِ

وما الفائدة التى تعود عليك أيها القادح بطعنك بالغير وثلمهم أتظن بأنك ترتفع فى أعين مجالسيك وتحوز رضاهم وتظهر لديهم أنك أوسع من الذين تندد بهم قدرًا فى

سوق الكلام، وأغزر مادة فى أبواب الخطاب أم تظن أنك تسدل على معائبك الستر بإظهار ما نسبته لغيرك وأطليت المحال على مجالسيك حتى صبغتهم بصبغة الخداع فظنوك صادقًا وما أنت إلاَّ حسودٌ كاذب لئيم زميم، فتأمل رويدك مليًا بالمضار التى تجلبها على المغتاب بهم زوراً وبهتانًا إلى أن يظهر الحق، وينجلى الصبح لذى عينين فتعود عاقبة كلامك وبالاً عليك فيبتعد مجالسوك عن معاشرتك ومرافقتك خشية أن يصيبهم ما أصاب أولئك المنكودى الحظ الذين رماهم الدهر تحت براثن تقريعك واغتيابك أفما كان أحراك بصيانة لسانك قبل أن تندم ولات ساعة مندم.

عفواً سيداتى عما ترون بى من الحدة ولكن هما العرض والمال وعليهما تتوقف حياة الإنسان، إذ هما مدار وجوده ومحور كيانه فإذا ذهبا ولا سيما العرض سار خاسره إلى عالم الخفاء والعدم وانمحى ذكره من سجل الأحياء، وكيف الحال بمن خسرهما زوراً وافتراءً.

ألا فلنتأمل بحالة تلك المحصنة التى جعلت العفاف دستوراً لها والعصمة قاعدة ذهبية تسير بموجبها بكل ما فرض عليها من الواجبات الدينية والأدبية نحو الله والبشر ثم قام ذلك الباغى الطاغى، وأذاع عنها أخباراً تأنف من سماعها الآذان وتشمئز من ذكرها النفوس الأبية معززًا إياها بالبراهين الدامغة لدى كل من يجهل حالة وصفات وآداب وحشمة وعفاف وكمال تلك السيدة الطاهرة الذيل والقلب ولغاية كمنت فى صدره جرَّ عليها زيل الحطة والضعة حتى أصبحت ولا تدرى كيف تبرر نفسها لدى العموم أو تعلمَّ إلى النجاة سبيلاً، وربما سيقيدها ضيق الحال وحب الشرف إلى الانتحار للتخلص من العار الموهوم.

وما كفى هذا المغتاب إلاَّ أن عاد على المغتاب بها بصفقة المغبون ناسبًا كل ذلك إلى من هم أسمى منه قدراً وأعلى منه شأنًا بآدابهم وحسن مباديهم، ليبرر نفسه مما أشاعه وأذاعه هو ومن هم عن شاكلته مما زاد بالطين بلة وفى الطنبور نغمة وأهاج

القلوب الملتهبة بنار الغيظ والكدر أن تنادى من سرح كلامه وانخدع بنفاقه.

لا تسمعن من الحسود نميمةً فكلامه ضربٌ من الهزيان

سل غيرهُ عنى لتعلم أفكه واسخط عليه فبالمحال رماني

وكذلك الحال فى أمر ذلك التاجر الذى إنما اكتسب ثقة الجمهور بأمانته وإخلاصه، فكان رائعًا فى بحبوحة النعيم والرخاء متمتعًا بتمام الراحة والرفاء ثم قام أحد المنددين مما كمن فى قلبه من الغيرة والحسد، وأعلن لمداينيه قلة ذات يده الذى عند سماعهم ذلك ذهب كلٍ منهم وسحب ما له وترك ذلك المغتاب به على أسوء الحالات وأرداها يندب سوء بخته وسواد طالعه، وهذا نتيجة التنديد بالعرض والمال ممن لا يخافون الله ولا يحسبون ليوم العرض حسابًا، ولكن سوف يعلم المنافقون أى منقلبٍ ينقلبون.

وعلى ما تقدم أختم كلامى بما قاله الحكيم بذر جمهر، وهو إياك وقرناء السوء فإنك إن عملت قالوا ترائيت وإن رافعت قالوا وشيت وإن حاميت قالوا أثمت وإن ضحكت قالوا جهلت، وإن نطقت قالوا تكلفت وإن سكت قالوا غلبت وأن تواضعت قالوا افتقرت، وإن أنفقت قالوا أسرفت وإن قاطعت قالوا خجلت وإن اقتصرت قالوا بخلت. ثم اطلب إلى الله العظيم أن يقينا شر المنددين ويعيننا على مقاومتهم لكى لا ندع لكلامهم من تأثير على العقول إنه السميع المجيب.

بيروت «استير ازهرى»